المرثيّة العلائيّة -قراءة في القصيدة الحمزيّة-

الدّكتورة: عبداوي حفيظة
كلية الآداب واللغات والفنون -جامعة جيلالي ليابس-

منذ وجد الإنسان ، وجد الموت ومنذ وجد الموت وجد الانفعال ، وانصهرت الذّات البشرية في حمّى المأساة ، تعلن القبول والاستسلام تارة ، وتعلن التّمرد والغضب تارة أخرى .

غير أنّ هذا التّمرد والغضب، لا يتجاوزان – في أقصى الذّروة – مجموعة تساؤلات يطرحها المنفعل تّجاه ظاهرة الفقد الّتي هي أحد مكونّات البنية المضادّة إذا ما جمعنا بين الموت والحياة.

من هذا المنطلق، سأحاول الوقوف عند أحد القمم الشّامخة في الأدب العباسي، إنه أبو العلاء المعري: شاعر الغزل و التّشاؤم و التّمرد على نواميس الحياة يقول:

غَيْرُ مُجْدٍ ، فِي مِلَّتِي وَ اِعْتِقَادِي نَوْحُ بَــاكٍ ، وَ لاَ تَرَنُّــمُ شَــادِ
وَ شَبِيهُ صَوْتُ النَعِيِّ ، إِذَا قِيــ سَ بِصَوْتِ البَشِيرِ فِي كُلِّ نَــادِ
أَبَكَتْ تِلْكُمْ الحَمَــامَةُ ، أَمْ غَــ نَّتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا المَيَّــادِ ؟
صَاح! هَذِي قُبُورُنَا تَمْلأُ الرُحْــ بَ ، فَأَيْنَ القُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ ؟
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُــمِ الأَضْــدَادِ
وَ دَفِيــنٍ عَلَى بَقَايَــا دَفِيــنِ فِي طَوِيلِ الأَزْمَــانِ وَ الآبَــادِ
إِنَّ حُزْنًا فِي سَاعَةِ المَوْتِ أَضْعَا فُ سُرُورٍ فِي سَــاعَةِ المِيــلاَدِ

كَيْفَ أَصْبَحْتَ فِي مَحَلِّكَ بَعْدِي يَا جَدِيراً مِنِّي بِحُـــسْنِ اِفْتِقَـــادِ
قَدْ أَقَرَّ الطَّبِيبُ عَنْكَ بِعَجْـــــزٍ وَ تَقَـــضَّى تَـــــــرَدُّدُ العُـــوَّادِ
وَ اِنْتَهَى اليَأْسُ مِنْكَ وَ اِسْتُشْعَرَ الوَجْـــ ـدُ بأَـــنْ لاَ مَعَادَ حَـــتَّى المَعَادِ
كُنْتَ خِلَّ الصِّبَا فَلَمَّا أَرَادَ الـــ ـبَيْنَ وَافَقْـــتَ رَأْيَهُ فِي المُرَادِ
إِنَّمـــَا يُنْقَلُونَ مِـــنْ دَارِ أَعْمـــَا ـلٍ إِلَى دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَـــــادِ
وَ اللَّبِيبُ اللَّبِيبُ مَنْ لَيْسَ يَغْتـــ ـرُّ بِكَوْنِ مَصِـــــــيرِهِ لِلْفَسَـــادِ

يبدو من خلال مدارستي لهذه القصيدة كونها محتكرة من طرف ثنائيّة : الموت والحياة فهي ترسم أبعادا أعمق غورا من مجرّد رثاء لفقيد عزيز ، غادر هذا الكون ، و اكتفى بترك بصماته في عالم أبي العلاء ، أو إن شئنا الدّقة – في وجدان أبي العلاء – ، فإذا بهذا الوجدان يعلن فلسفة تساوي الأضداد ، فلسفة تساوي الرّبح و الخسارة ، وكأنّي بأبي العلاء ينتهج في دنياه منهج المستخفّ اللاّمبالي مادام " الوجود " يشكّل تلك الظّاهرة العبثيّة الّتي لا تستقرّ على حال !

هكذا يبدأ الرّجل مرثيته لأبي حمزة ، جامعا بين بنية الاستخفاف وبنية التّقرير في محاولة منه لتشكيل حركة دائريّة ، تقوم مقام " الوحدات الغرضيّة "[1] حيث يقول :

غَيْرُ مُجْدٍ ، فِي مِلَّتِي وَ اِعْتِقَادِي نَوْحُ بَـــاكٍ ، وَ لاَ تَرَنُّـــمُ شَـــادِ
وَ شَبِيهُ صَوْتُ النَعِيِّ ، إِذَا قِيـــ ـسَ بِصَوْتِ البَشِيرِ فِي كُلِّ نَـــادِ
أَبَكَتْ تِلْكُمْ الحَمَـــامَةُ ، أَمْ غَـــ ـنَّتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا المَيَّـــادِ ؟[2]

لقد بنيت هذه الوحدة الغرضيّة ، على فعل الاستخفاف التّام بمجريات الأحداث ، فإذا بالألفاظ تتقابل في انتظام علائقيّ ، وتشكّل وظائف قيادية لبقية القصيدة ويتّضح ذلك من خلال هذه التّرسيمة:

1– نَوْحُ	3– بَاكٍ	5– النَّعِيِّ
2– شَادٍ	4– تَرَنُّمُ	6– البَشِيرِ

الوحدة الغرضية الأولى

إنّها سداسية موزّعة داخل اللّغة العلائيّة في شكل عناصر متقابلة ، من شأنها أن تتظافر لتخلق حسّا أدبيّا ، لا يمكن تجاهله فـــ " ما الأدب إلاّ عناصر تتظافر لتخلق الجمال ، وما اللّغة إلاّ الظّاهرة الشّكليّة الوحيدة الّتي تتيح لنا أن نتعرّف على الأدب الّذي لا يتحقّق إلاّ بها وفيها "[3].

بعد هذه الوحدة الغرضيّة الّتي تشكّل ألفاظها وظائف قياديّة تنمو القصيدة وتتقدم في تصاعد ملموس تّجاه بنية تقريريّة قائمة على رواسب دينيّة مفعمة بالحكمة وعمق الفكر .

يقول الشاعر :

صَاحِ! هَذِي قُبُورُنَا تَمْلأُ الرُحْـــ بَ ، فَأَيْنَ القُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ ؟

ثم يقول :

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُـــمِ الأَضْـــدَادِ

وَدَفِيـــنٍ عَلَى بَقَايـــَا دَفِيـــنِ فِي طَوِيلِ الأَزْمَـــانِ وَالآبَادِ[4]

كما يبدو فإن توزيع الألفاظ في هذه الوحدة الغرضية الثانية قد تشكّل من معجم واحد لا يخرج عن دلالة "النّهاية الحتميّة " ، مهما طال الزّمن ، و عن دلالة " السّابق واللاّحق" ، وتوحّدهما في المصير ، وفي عمليّة تفكيكيّة للمكوّنات اللّفظية في هذه الوحدة الغرضيّة ، نقف على التّرسيمة الآتية :

1– قُبُورُنَا	3– لَحْدٍ	5– دَفِينٍ
2– القُبُورُ	4– لَحْداً	6– دَفِينٍ

الوحدة الغرضية الثانية

هذه السّداسيّة اللّفظية، سيختصرها المبدع في تقرير عاجل، مبنيّ على مقولة الشّمولية وذلك حين يعلن :

إنَّ حُزْناً فِي سَاعَةِ المَوْتِ أَضْعَا فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ المِيلاَدِ [5]

وكأنّ الشّاعر لم يسبق له أن نادى بتساوي الأضداد، فها هو الآن ، وقبل الشّروع في رثاء صديقه يمهّد لبثّ انفعالاته تّجاه المفقود فيركن إلى التّسليم بحرقة الموت وهو الّذي كان في مطلع القصيدة مستخفّا بأخبار النّعي والبشير على السّواء ، و ليس ذلك بغريب على شيخ المعرّة الذي اشتهر بالتّردّد والحيرة [6] في كثير من الأبيات المبعثرة في

كتب الأدب العربيّ ، والّتي تناولت مختلف نتاجات الرّجل وخاصّة جوهرته: " اللّزوميات " .

و إذا انتقلنا إلى الوحدة الغرضيّة الثّالثة ، نجد النّاص قد انتقل إلى بنية المناجاة ، مناجاة تسيل لوعة وأسى،

وتشّد أجزاء القصيدة، بعلاقات وشيجة، قوامها الافتقاد لهذا الرّاحل.

يقول الشّاعر و كأنّه ينتحب :

كَيْفَ أَصْبَحْتَ فِي مَحَلِّكَ بَعْدِي يَا جَدِيراً مِنِّي بِحُسْنِ اِفْتِقَادِ
قَدْ أَقَرَّ الطَّبِيبُ عَنْكَ بِعَجْزٍ وَتَقَضَّى تَرَدُّدُ العُوَّادِ
وَاِنْتَهَى اليَأْسُ مِنْكَ وَاِسْتُشْعِرَ الوَجْـ ـدُ بِأَنْ لاَ مَعَادَ حَتَّى المَعَادِ
كُنْتَ خِلَّ الصِّبَا فَلَمَّا أَرَادَ الـ ـبَيْنَ وَافَقْتَ رَأْيَهُ فِي المُرَادِ[7]

إنّ الشّاعر في هذه المناجاة ، يسير على نمط استحضاريّ لشخصيّة الرّاحل ، وكأنّه يتمثّل الوقائع ليذكّر بها هذا الرّاحل ، وليجعل من عالم الغياب عالم حضور، الحضور بالحركة والصّخب والحوار في استخدام دقيق للألفاظ، ووفق تشكيل فنّيّ يؤكّد قول القائل :

" يستخدم النّاظم و النّاثر كلاهما المادّة اللّغوية ، و لكن للنّظم جمالاته الشّكليّة ، وهو صنعة وتأنّق وقوالب " [8]

فالمادّة اللّغوية المؤسّسة لهذه الأبيات تتراوح بين:

1- الاستفسار : كيف أصبحت ؟

2– النّداء : يا جديرا

3– التّذكير :

* قد أقرّ الطّبيب
* تقضّى تردّد العوّاد
* اتنهى اليأس منك
* كنت خلّ الصّبا

الوحدة الغرضية الثالثة

إنّ المتأمّل في هذه الوحدات الثّلاثة يستشعر تلك الطّاقة الّتي أوتيها شيخ المعرّة في مسالك النّظم وخاصّة في فنّ الرّثاء ، وهو الّذي سبق ورثى والديه ، وها هو يرثي صديقه الفقيه متّخذّا من هذا الرّثاء مطيّة للبوح بعقيدته تارة :

إِنَّمـــا يُنْقُلُونَ مِـــنْ دَارِ أَعْمـــا لٍ إِلى دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَـــــادِ [9]

و للبوح بقناعاته تارة أخرى :

وَ اللَّبِيبُ اللَّبِيبُ مَنْ لَيْسَ يَغْتـــ رُّ بِكَوْنِ مَصِـــيرِهِ لِلْفَسَـــادِ[10]

لقد حاولت في هذه العجالة الاكتفاء ببعض الأبيات من القصيدة الحمزيّة ، وجمعت هذه الأبيات في ثلاث وحدات غرضيّة ، رأيت أنّها تشكّل الخصيصة الجوهريّة لكلّ أجزاء القصيدة ، وأنّها تنتظم في سلك واحد يجمع بين العقل المتفلسف، و النّفس الرقيقة ،واللّغة الرّاقيّة ،و الّتي قال عنها في موضع آخر :

لاَ تُقَيِّدْ عَلَيَّ لَفْظِي فَإِنِّـــي مِثْلُ غَيْرِي ، تَكَلُّمِي بِالمَجَازِ [11]

وهكذا نجد رهين المحبسين–العمى والبيت–قد تفنّن في الرّثاء، فخرج فيه من التّقليد الذي هو مجرّد البكاء على الميّت وتعداد مناقبه، إلى طرح فكرة فلسفة الموت والبقاء، فكانت قصيدته الحمزيّة(ضجعة الموت رقدة) أشهر ما نظمه في هذا الغرض، وقد تضمّنت حكما جليلة منها قوله:

تَعَبٌ كُلُّهَا الحَيَاةُ فَمَا أَعْ جَبُ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَاد.

الإحالات

1– الشكلانيون الروس ، ترجمة ابراهيم الخطيب ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، مؤسسة الأبحاث العربية ،ط1 ، 1982 ، ص 180 .

2– أبو العلاء ا المعري ، سقط الزند ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ، د.ط ، 1407 هـ – 1987م ، ص7.

3– ريمون طحان ، الألسنية العربية ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،ط 2، 1981 م ، ج2، ص 116.

4– أبو العلاء المعري ، سقط الزند ، ص7– 8.

5 – المصدر نفسه ، ص8.

6– أبو العلاء المعري ، اللّزوميات ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، د. ط . 1381 هـ ، 1961 م ، المجلد الأول، ص 252 .

7– أبو العلاء المعري ، سقط الزند ، ص 11 .

8– ريمون طحان ، الألسنية العربية ،ج 2، ص 117.

9– أبو العلاء المعري ، سقط الزند ، ص 8 .

10– المصدر نفسه، ص 12 .

11– طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، دار المعارف بمصر ،ط 08 ، 1914 م ،ص 244 .

12– طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص 111 ، أبو العلاء المعري " رسالة الغفران " دار صادر، بيروت ،

د– ط ، 1964 ، ص 5 .

13– أبو العلاء المعري ، سقط الزند ، ص 193 .

14– المصدر نفسه ، ص 7 .

15– المصدر نفسه ، ص 8 .